المنســـوجات
في الخلافة الاسلامية

للدكتور ر . ب . سارجنت

لقد طغت صناعات الغرب على جميع أنحاء العالم فى أثناء القرون الثلاثة الماضية ، حتى أوشكنا أن ننسى أن صناعات الشرق ، ولا سيما الشرق الإسلامى وبيزنطة ، كانت تهافت عليها البلاد الأوربية تهافتاً عظيما . ويحدثنا رحالة البلاد الغربية فى القرن السادس الهجرى أن الإسكندرية كانت تموج بحركة الملاحة وسفن النقل البحرى من جميع ممالك أوربا حتى أقصى حدودها الشمالية فى البلطيق وإسكندناوة ، بله العديد من التجار الذين كانوا من جهات أبعد فى الشرق كالهنود وغيرهم . وليس ثمة شك فى أن تلك السفن حملت معها « الإسكندرانى » الثمين وهو نسيج من التيل المطرز بالحرير . وأغنية رولان ، التى كتبت فى القرن الحادى عشر ، والتى كانت تصف حوادث عصر سابق بمدة طويلة لتاريخ كتابتها ، تذكر جثة مكفنة بقطعة من نسيج الإسكندرانى . وكما انتقلت تجارة المنسوجات إلى الغرب عن الطريق البحرى ، كذلك انتقلت إليه عن الطريق البرى على الساحل الشمالى الافريقى ، كما أنها انتقلت إلى أوربا الشرقية كما يستدل على ذلك من العملة الإسلامية التى ترجع إلى ذلك التاريخ والتى عثر عليها فى الطريق الرئيسية لأوربا الشرقية والسهول الشاسعة لبلاد الروسيا ، مما وصل إلى بعض البلاد التى فى أقصى الحدود الشمالية لبلاد الروسيا . ويحدثنا ابن فضلان أن الروس كانوا يتجرون مع البلاد الإسلامية فى فراء القندر والسمور والسنجاب ، إذ كانوا يجلبونها من الشمال بطريق الماء على نهر الفولجا ، ويأخذون بدلها المنتجات المصنوعة فى العالم الإسلامى المتمدين .

٢٢ ـ ٢٤

وكانت فرنسا ، وإيطاليا ، والدويلات الألمانية ، وأسبانيا ، وغيرها من بلاد أوربا تستورد المنسوجات من الشرق الأوسط لاستعمالها فى القصور الملكية والأغراض الدينية فى المعاهد الكنسية الغنية ، حيث معظم النماذج المعروفة لتلك المنسوجات لا تزال باقية حتى اليوم ، ولاسيما ما هو باق منها فى الأقطار البلطيقية . وعلى مقتضى ما نقرؤه فى دفاتر الحسابات الملكية الإنكليزية التى ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، كان ملك انكلترة قد اشترى منسوجات إسلامية ليضعها فى كنيسة وستمنستر . ولقد اطلعت فى سجلات النفقات البيتية للوك اسكتلاندة فى سنة ١٣٣١ ميلادية ، على أصناف تشتمل على قطع من الحرير الرقيق من أنطاكية وطرسوس وطرابلس الشام .

وفى عهد الخلفاء العباسين — بل فى عهد الخلفاء الأمويين كذلك — كان بلاط الخليفة يستورد منسوجاته الثمينة من مجموعة عظيمة من الصانع التى تملكها الدولة لصناعة تلك المواد الثمينة وكانت تعوف

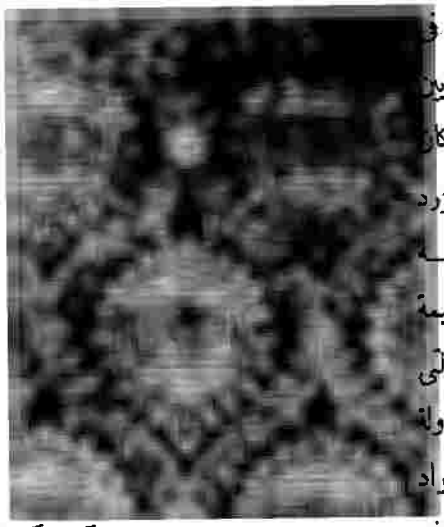

(شكل ١) زخرف من اللوتس وبه كتابة كوفية

تلك الصانع باسم مصانع الطراز . ويقول رحالة العرب إنه كانت توجد مصانع للطراز فى كثير من بلاد فارس ، ومصر ، وأفريقية الشمالية ، وأسبانيا ، كما يذكرون أنه كانت هناك مصانع للطراز فى صقلية ، وسوريا ، والعراق ، واليمن . ومن المرجح أن المنسوجات كانت تحمل من هذه الصانع إلى قصور دمشق ثم بعد ذلك إلى قصور بغداد ، حيث كان يلبسها رجال البلاط أو ينعم بها هدايا قيمة وتكريما للمنعم عليه بتلك الخلع ، من رجال الدولة ، حتى الشعراء والمغنين كما نحدثنا بذلك القصص الطريفة التى تملأ كتاب الأغانى . على أنه ليس

شك فى أن هذه المصانع لم تكن من اختراع العرب الذين غادروا الصحراء وورثوا نظم الحكم وخرائق العيش عن البيزنطيين والفرس . ويشير الجهشيارى إلى أن ديوان الخراج كان يستعمل اللغة اليونانية فى الغرب واللغة الفارسية فى الشرق ، حتى حدث التعديل بنقل لغة الديوان إلى العربية . وهو يذكر ثبتا بالمنتجات الخاصة بكل إقليم ، والتى حملت إلى بغداد بصفتها جزءا من الخراج وكثير منها كان من المنسوجات . فمن المرجح إذن أن ديوان الخراج كان على اتصال وثيق بادارة مصانع الطراز . ويختلف المؤرخون فى أصل نشأة الطراز ، أكانت فى مصر أم فى العراق ؛ ولكن المرجح أن الطراز كان فى كل من القطرين منذ زمن لا تعيه الذاكرة ، بقية من نظام الضريبة النوعية التى كانت تدفع

(شكل ٢) نسيج مصرى مشجر يرجع إلى حوالى سنة ١٣٠٠

ولقد كان الطراز من الأهمية فى عصر العباسيين بحيث عين له رئيس خاص بادارته ، ولم يقنع هارون الرشيد بشخص أقل من جعفر البرمكى نفسه لادارة ديوان البريد ، ودار ضرب النقود ، ودار الطراز — وهى وظائف لا بد أنها كانت تدر الخير . وبانحلال الخلافة العباسية انحلالا تدريجيا شرعت الإمارات الصغيرة تستولى على دور الطراز السلطانية أو تنشىء دوراً جديدة ، وعلى الخصوص فى الأندلس وأفريقية الشمالية . ولإمام اليمن مصنع ملكى للطراز فى صنعاء من المرجح أنه منحدر انحداراً مباشراً عن مصنع الطراز الذى كان للخلفاء .

وفى تاريخ غير معروف أنشىء مصنع ملكى للطراز على الضفة الشمالية لنهر دجلة بالقرب من الرصافة ، ولا بد أنه كان يضم مساحة كبيرة من الأرض . وكانت بغداد كما هو المنتظر من دخلها الضخم وبلاطها المترف وسكانها الذين يقدرهم بعض من يحتج بهم بمليونين من الأنفس — أعظم مركز لصناعة المنسوجات فى العالم الإسلامى . وكانت حلل ولاية العرش تصنع فى دار الطراز حتى فى العصور الأخيرة للخلفاء العباسيين المغلوبين على أمرهم والذين كادوا لا يملكون من سلطان الحكم أكثر من اعتمادهم لأولئك الذين كانوا يغتصبون السلطة فى أيديهم . فقد كانوا مثلا يرسلون مجموعة من الحلل الملكية لأمير مثل محمود الغزنوى ، محتوية على منسوجات بغداد الخاصة . وقد عثر علماء الآثار القديمة على نماذج موشاة بالكتابة من صنع دار الطراز ببغداد فى أجزاء أخرى من الإمبراطورية الإسلامية .

وكان من الطبيعى أن أنواعا شتى من المنسوجات كانت تصنع أو تباع فى العاصمة الإسلامية . فاليعقوبى يحدثنا عن تجار للمنسوجات الخراسانية بالقرب من ناحية الكرخ وكانت بعض أجزاء مدينة بغداد تسمى بأسماء النسيج الذى تصنعه أو تبيعه . فالنسيج الذى من صنف التستر كان يشترى من حى التستارية . وتستر مدينة من مدن خوزستان على رأس خليج العجم . ومن الشائق أن نذكر أنه كان فى تلك الولاية كثير من مصانع الطراز ترجع نشأتها إلى عهد الدولة الساسانية التى كان ملوكها قد نقلوا الصناع من حدود رومية ليؤسسوا صناعاتهم فى جنوبى بلاد العجم وفى العراق . وربما كانت الثياب الديبقية تصنع فى حى الديبقية على نهر عيسى ، وهو طبعا نسيج أصله مصرى ، كما أنه قد يكون أكثر الأنسجة تردداً على الألسنة وأعلاها قدراً فى ذلك العصر . ويصف لنا الغرناطى نسيج العتابى بأنه مقلم كجلد حمار الوحش ، وهو حيوان يقول عنه إنه من فصيلة الحمير ، وقد رآه فى القاهرة وعند ما مات ذلك الحيوان حفظ جلده وحشى قطنا لعرضه فى أيام المواسم .

ولقد رأت الحكومة فى تلك الصناعة الرائجة ، صناعة الأنسجة ، مصدرا لجلب الضرائب ، فحاولت فى القرن الرابع الهجرى أن تفرض ضريبة على جميع المنسوجات المصنوعة من الإبريسم أو القطن فى المدينة ، مقدرة أن تجلب تلك الضريبة ألف ألف درهم للخزانة العامة . ولكن الضريبة كانت مكروهة : وسببت اضطرابات عنيفة ، فقررت الحكومة فيما بعد ترضية الشعب بفرض ضريبة على المصنوعات الحريرية فقط . وأنشىء مكتب بجوار بركة زلزل ، وكانت جميع البضائع التى تدفع عليها ضريبة تختم هناك بخاتم الحكومة ، وهو نظام يثير العجب لانطباقه على الأساليب الحديثة الآن .

(البقية فى العدد القادم)

عن مجلة الأدب والعلوم الإنكليزية